البطولة النفسيّة والشمائل الإنسانية في الشعر الجاهلي

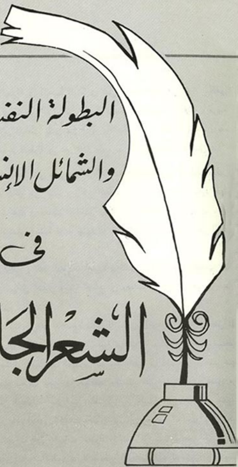

اعداد : د . عبدالرحيم محمود زلط

كثيرا ماتردد كلمة البطولة فى المحيط البشرى على ألسنة الناس . وحين يتلقفها السمع تترجم فى الشعور الإنسانى الى الانتصار الساحق أو الغلبة الحربية فى معركة طاحنة . أو خذلان الباطل بلون من القوة والسيطرة . ولايكلف الانسان نفسه التفتيش عن المعنى الجديد للبطولة فى غير مجال الضرب والقهر والفوز العضلى ..

وإذا كان الناس قد اتفقوا ،على معنى الغلبة والانتصار العضلى رمزاً للبطولة فهذا أمر ظاهرى يشترك فى فهمه طائفة من البشر . ولكن البطولة النفسية هى التى ينفرد بفهمها خاصتهم . وتلك التى شاعت فى معارك الإنسان ونفسه ضد نظم الحياة وقسوتها . وفيها انتصر الإنسان وخلد بانتصاره أسساً قويمة تشهد له بقوة التحكم والسيطرة عبر العصور والأماكن ..

فجاء دور الشعراء يمجدون تلك البطولة الجديدة ويخلدون ذكرها حتى تلقفتها أفئدة الناس ودعوا مافيها من شمائل تحتذى وخبرة تحتاج الى وقفات دراسية مما وضعت دعائم للتربية والسلوك منذ القدم .

إن البطولة العضلية بيّنة معروفه للجميع،ويمكن للإنسان أن يدرك أسبابها ليصل الى نتائجها دون عناء أو إهمال للفكر . فمن وهبه الله قوة عضلية أو بسطة فى الجسم يستطيع أن يحققها فى يسر واطمئنان . أما تلك البطولة النفسية الخفية فما أشق أن يبحث عنها الإنسان ويسبر غور أخيه ليعرف مكوناتها ودوافعها ووسائل ظهورها . والى ماتحقق من نتائج . والكشف النفسى للبطولة أمر ليس بالهين : بل يحتاج إلى مقاييس عديدة واختبارات تعارف عليها علماء النفس لكشف مكنون الإنسان ومفهومه الداخلى . ولم يكن ذلك بالأمر اليسير أن نتعرف على مكونات البطولة النفسية لإنسان العصر الجاهلى وهو الذى لم يصلنا عنه غير إنتاجه النظمى . ولانستطيع التحدث اليه لنخضعه للمقاييس النفسية . أو نجرى عليه تجارب العلماء حتى ندرك دوافعه التى تشكل سلوكه . ونقرأ فى وجهه علامات الانفعال أو الرضا لنشرح إنتاجه النظمى وفق العلاقة والارتباط بين داخله ومسلكه . وإن هى الا محاولة لإخضاعه على البعد الزمنى والمكانى وتصوره باجتهاد

شخصى لعله يصيب .

فمما لاشك فيه أن الإنسان يعيش فى حياته متبعا للعديد من مألوف الخصال التى توارثتها الأجيال وتناقلتها عبر السنين ، وتختلف هذه الخصال من بيئة لأخرى ، فما ألفه رجل البادية استهجنه أخوه الساحلى ، وما ارتاح اليه الحَضرى نفر منه القروى ، ولكن مضمون هذه الخصال يؤلف فيا بين هذه الأنماط من البشر ، ويتفق الجميع على مفهومها ويَدّعون شاذها وينفرون منه ..

وإذا رجعنا إلى عملية الاستحسان والميل لبعض الخصال وترك البعض الآخر وجدنا أنها ترجع فى المقام الأول الى مجموعة من العناصر والأسس التربوية ، وهى التى تحدد سلوك الإنسان وتنظمه وتسيطر عليه سيطرة كاملة ، المجتمع فيها هو صاحب الكلمة والإنسان الفرد هو المنفذ . وقد أدركت المجتمعات الأولى ـ لاسيا فى محيط الجزيرة العربية وفى العصر الجاهلى ـ العديد من الأسس التربوية وخططت لشيوعها فى المجتمع وتغلغها فى كيانه والحرص على تقويمه بها والنهوض به من خلال تطبيقها .

ولم يكن العربى الجاهلى قد انخرط فى سلك التعليم أو التحق بالمدارس أو التقى بعلماء العصر ، ولكنه ألف التربية من كيان المجتمع وتهذب بأسسها وفق الأنماط العديدة الموضوعة له ..

ولقد أدرك التربويون وعلماء النفس أن مجموعة الخصال التى يؤكدون على وجودها ونموها الضرورى فى المجتمع هى نفس الخصال المتوارثة منذ العصر الجاهلى حتى الآن، وإن دخل عليها بعض التعديل للتناسب ومتطلبات العصر، وهى التى أدركها العربى آنذاك نتيجة تفاعله مع مجتمعه واستحسان بعضها واستهجان البعض الآخر..

ولو عرضنا هذه الخصال والشمائل الإنسانية على المقاييس الحديثة لنظم التربية وما استكشفه الإنسان من معايير مقننة تفيد البشرية وتعمل على نهضتها ـ لو فعلنا ذلك ـ لوجدنا أنها تخضع الى حد كبير لما أجهد الإنسان نفسه فى البحث عنه ومعرفة كنهه ، وما أطلق عليه من مسميات حديثة ربما لم تكن مألوفة للسابقين من قبل ، ولكنهم أدركوا

الأمور بجوهرها ، وسموها بمسميات اتفقوا فيها بينهم على وظائفها ومانفيد به المجتمع من خصوصيات . فهى تشكل فى نهاية المطاف قيماً بطولية محمودة وتحض على التحلى بها . أو تظهر قيما مذمومة وتدعو لهجرها بكل السبل الممكنة . وبتلك البطولة يفرق بين السمين والغث من الأخلاق والشمائل التى إنتهجها الإنسان منذ العصر الجاهلى .

ولاغرابة أن يدرك الفرد الجاهلى مع ذاته أو مجموعة الأفراد الذين يعاشرهم تلك الأسس ويهتف بها فى شعره مؤمنا أن رسالة الشعر فى هذا المجال تعليمية تهذيبية . مدركاً أن العقل الإنسانى يفهم مضمون الشعر بشغف ويتلهف لكل ماتسمعه أذنه بوعى وإرادة . فكانت وسيلتهم خلال تلك الفترة هى الترديد والوعظ والإرشاد والإشادة بحميد الصفات والحث عليها فى شكل الحكمة المؤدية لغرض . الداعية الى الالتزام أو الهجر حسب مقتضى ظروف مايقال .

وربما يعجب الإنسان متسائلاً لماذا ذخر الشعر الجاهلى بهذه الشمائل رغم بعد المسافة الزمنية بين عصره وعصر تقنين العلوم ووضع حدود المألوف والمستهجن من السلوك الإنسانى ؟ ويكون الجواب : إن هؤلاء الذين عاشوا فى خضم الجاهلية وعركوا وعورها وارتادوا سهولها كان أمامهم فرصة سانحة لقراءة كتاب الحياة والتعلم منه . فهذه الأفاق البعيدة !، وتلك الحدود الاجتماعية المتعارف عليها . وذلك الإعجاز الالهى لليل والنهار واختلاف ألوانها مع اختلاف تعامل الناس وتفكريهم بما عرف فيما بعد بالفروق الفردية أمر كان مألوفاً بالنسبة لهم . وحدود كانت مشروحة شرحاً ذاتيا أمام نواظرهم . فالعجب أن يهتم الإنسان بدراسة خصال قوم لم يدرسوا . ويبحث فى أفكارهم عن خصال وشمائل استنباطية أفادت البشرية عبر الأجيال المتعاقبة ..

فكان لابد من دراسة هذا الرصيد الثمين من الشعر الجاهلى والتنقيب فيه عما ترك هؤلاء من أسس تصلح نبراساً عبر الأجيال والعصور وتدل على البطولة النفسية . ولاغرابة فى ذلك . فمتى صح تفكير العقل البشرى واهتدى الى نور اليقين بصحة إعمال ذاته أنتج درراً خليقة بالدراسة والبحث .

ومهما كان الأمر فى هداية الناس فى العصر الجاهلى بأسس إنسانية قبل الإسلام ونوره والإرشاد القرآنى وآياته ، فإن الباحث فى مضمون الشعر الجاهلى وبخاصة فى ميدان الحكمة يستطيع أن يضع يده فى راحة تامة وجلاء بينّ على الأبيات التى اهتدى بها الناس كأنماط سلوكية متى وعتها عقولهم وعقلتها أفئدتهم ، ومما يؤكد نفعها أنه لما جاء القرآن الكريم أكدت آياته صدق ما اهتدى اليه الجاهليون من خصال وشمائل إنسانية حميدة اتخذها الناس دستوراً هم متى جنحوا الى الخير واتبعوا سبيله ، فمنهم قوم هيأ الله تعالى نفوسهم للتقوى وبذر فيها بذور الخير فوهبوا أنفسهم لهداية الآخرين، وإشعال منارات الحياة أمام نواظرهم حتى ترجم الشعراء نظرات هؤلاء القوم وملاحظاتهم الى بطولات منظومة يمكن اتخاذها نبراساً لتغذية معارف الإنسانية ودفعها الى الرقى فى سلم الحضارة المتطورة عبر السنين والأماكن .

وليس المقصود بهذه البطولات ماكان منها عسكرياً هجومياً أو دفاعيا ؛ ولكنها بطولات نفسية ينسج الشاعر عدتها وينظم عقدها حتى غدت تسر الناظرين وتأخذ بالألباب وتكون خليقة بالدراسة ؛ فدائما ماتكون البطولة فى الشعر مما اطمأنت اليه نفس الشاعر عن طريق الحكمة والموعظة الحسنة ، وتتمثل البطولات عادة فى سلوك الإنسان سلوكاً طيباً مقبولا مع نفسه ثم من يجاور فى المحيط البشرى ، فعموم الناس دون رابطة الدم أو النسب ، ثم لمن يكون فى مضمون كلمة الإنسانية .

إن غاية مايرجوه الباحث من عنصر النفسية هو رسم الصورة الخلقية التى يألفها الجميع ويقدمون عليها ، فالبطولة هى مكونات الرجولة الحقة للخلق الكريم من صبر وكرم ونجدة وعفة نفس وعدم تلون وحفظ الجار والدفاع عنه وصلة الرحم والسمو فوق مايصيب الإنسان ، والالتزام بالحمية، وكلها من الدوافع الاجتماعية التى تحض الفرد على السوك ليشعر بالأمن مع الجماعة لتحقيق البطولة المرغوبة . ويعنى الأمن التحرر من الخوف ، ويكون الإنسان فى حالة أمن متى كان مطمئناً فى حياته ويعمل على اكتساب رضاء الناس وحبهم واهتمامهم ومساندتهم العاطفية(١) . ومتى تحقق الشعور بالأمن بدأت العوامل

الإنسانية الداخلية فى التحرك والتفاعل لتوائم حاجات المجتمع وسلوك الأفراد . ومن هنا كان نسج الشعراء نظماً يهدى البشرية ويعبرون عما يحسونه تجاه بناء مجتمع صالح حتى يكونوا موضع قبول وتقدير واحترام من الآخرين . وأن يكونوا بمنأى من استهجان المجتمع أو نبذه وهى حاجة يرضاها الشعور بأن لهم قيمة اجتماعية وأن وجودهم وجهدهم لازمان للآخرين : ومن هنا كان اندفاعهم للتعبير عن الذات والإفصاح عن الشخصية وتوكيدها بأن يحققوا مالديهم من إمكانات . وأن يبدوا مالديهم من آراء أو أن يقوموا بأعمال نافعة وذات قيمة للآخرين(٢) .

ومن هنا تتحقق البطولة النفسية التى تحقق الصداقة بين الشاعر وغيره ممن يعملون بنظمه ويتبعونه فى آرائه . فعاطفة الصداقة تنشأ وتتكون تدريجياً نحو شخص يفتح صدره لك ويقاسمك متاعبك . ويعينك فى الشدة وعند العثار، ويحتمل أخطاءك ويدافع عنك فى غيبتك . ويستمع الى شكواك ويشعرك بأنك غير وحيد ويحول بينك وبين السخط على الناس . يشاركك فى مسراتك فيضاعفها . وفى أحزانك فيخففها . ويعطيك من تجاربه مايفيدك مما يزيدك شعوراً بالأمن واحترام النفس(٣) . وذلك ماحرص شعراء العصر الجاهلى أن يضعوا لبناته الأولى لكل المجتمع الإنسانى .

لقد ألف النقاد وتبعهم أجيال من المثقفين أن تكون ألوان الشعر فى العصر الجاهلى هى الغزل والنسيب والمدح والفخر والحماسة والهجاء والرثاء وذلك الجانب العريض من الوصف . ولم يتطلع أحد منهم الى ماخفى منها مما كان يجول بخاطر الشعراء حين أجهدوا أنفسهم نظماً وغوصاً وراء الألفاظ المعبرة عن الخواطر الجارفة . فأهملت دراسة الجانب الإنسانى النفسى فى الشعر الجاهلى . ولم يخصص أحد من الباحثين وقته وجهده لدراسته مما جعله من مكنون القول ومكنوز التراث الذى ينبغى التنقيب عنه فى المحيط الأدبى من أقصاه الى أدناه . مع أننا لو أعطينا لأنفسنا حق الكشف عنه لحزنا فضل السبق وكانت لنا الآراء التى تشد الكثيرين للتأمل والدراسة المتأنية والبرهنة على صدق دعوانا . ولحققنا قول الشاعر الجاهلى عبيد بن الأبرص(٤) :

لخير يبقى وإن طال الزمان به   والشر أخبث ما أوعيت من زاد

ولضربنا الصفح عن قول الشاعر الصعلوك تأبط شراً(٥) الذى رأى البطولة متمثلة فى نفسه أحيانا حين وصف ذاته بأنه :

قليل غرار النوم أكبر همه   دم الثأر أو يلقى كميا مسفعاً

عفة النفس :ـ

وفى تناولنا للبطولة النفسية والشمائل الإنسانية فى محيط الشعر الجاهلى نجد أن أول مايطالعنا ويلفت الأنظار تلك الأمور المتعلقة بالنفس وعفتها .

لقد كان من أصعب الأمور على النفس الإنسانية فى العصر الجاهلى أن يهجر الإنسان مألوف قومه ، وينبرى لقضية فردية يدافع عنها حتى إذا آمن له قومه علت كلمته بينهم وأصبحت تتسم بسمة الإنسانية ووعتها أفئدتهم ، ورددتها ألسنتهم وهم لها فرحون حتى أقبل بعضهم على بعض يتساءلون ماجدوى هذا الجديد الذى ساقه الينا هذا الشاعر ؟ فإذا اطمأنت أنفسهم اليه رددوه وجاهدوا القوم دونه .

إن الشاعر الجاهلى الذى ألف قومه يهرعون الى أول نداء له وكأنهم :

لايسألون أخاهم حين يندبهم   فى النائبات على ماقال برهانا

أخذاً لثأر أو رداً لمظلمة ، أو إغارة لمغنم يأخذونه ، رأى أن من واجبه الإنسانى الأمثل أن يدعوهم للعفة وهجر ماعند الآخرين والترفع عن ذلك، فينصب نفسه داعية للخير والتحكم فى النفس الأمارة بالسوء ويحّول وجهتها الشريرة الى خير دائم ، ويهتف بهم أن اتركو مغانمكم الزائلة ، وروّضوا أنفسكم على حب الخير وألفة العفة والتسامى فوق الدنايا محققاً قول الحق تبارك وتعالى « قد أفلح من زكاها »(٦) . فيالها من بطولة نفسية حين يستطيع تغيير مسار حياتهم ويأخذ بأيديهم لما فيه نفعهم وصلاح أحوالهم . فهذا عبيد

ابن الأبرص(٧) يباهى قومه بعفة النفس ويدعو اليها كدليل على كرم الخلق وحميد الخصال :

لعمرك إننى لأعف نفسى   وأستر بالتكرم من خصاصى

ويأتى الشاعر الشنفرى ذلك المتصعلك والذى نحل جسمه من قلة الطعام حتى غدا هيكلاً مخيفاً، ولكنه بعفة نفسه يقهر الجوع حتى يميته قبل أن يقضى هو عليه، أو يسأل الناس ماعندهم ليسد حاجته، ويفضل أن يستف تراب الأرض ولا يتفضل أحد عليه بكسرة خبز . فهو عفيف النفس يترفع عما يشنيها من معايرة الناس له بفقره الظاهرى . ويهتف بقناعة النفس وعفتها مفتخراً :(٨)

أديم مطال الجوع حتى أميته   وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل
وأستف ترب الأرض كيلا لايرى   علىَّ من الطول امرؤ متطول

فعفة نفسه جعلته يفرض إرادته ساعة يصارع هذا الجوع ويتحداه حتى لو دفعه ذلك أن يأكل التراب(٩) .

ويأتى الشاعر أبو خراش الهذلى فيهتف بعفة نفس أنه يصارع الجوع حتى يمله ويتركه ولايدنس نفسه بسؤال بخيل طعاماً ، فهو شجاع متحكم فى غرائزه ويؤثر عياله على نفسه ولايقبل الذل والضيم ويفضل عليه الموت ، فأى ارادة عفيفة تلك التى جعلته يقول :(١٠)

وإنى لأثوى الجوع حتى يملنى   فيذهب لم يدنس ثيابى ولاجرمى
وأغتبق الماء القراح فأنتهى   الى الزاد أمس للمزلج ذاطعم(١١)
أرد شجاع البطن قد تعلمينه   فأوثر غيرى من عيالك بالطعم
مخافة أن أحيا برغم وذلة   وللموت خير من حياة على رغم

ويدور الشاعر ذو الاصبع العدوانى(١٢) فى لوحة من حميد الخصال يتبين فيها أنه عفيف النفس عفيف اللسان وبخاصة على الأقربين ، فيعف نفسه عن فحش القول وفاجره . وليس ذلك عن ضعف واستكانة ، وإنما هو الشجاع المقدام متى ناداه واجب الحق دفاعاً . ولكنه البطل الجسور الذى يكبح جماح نفسه وينتصر عليها حتى لايلام بإثم ليس من خلائقه ؛ فالعفة تدعوه الى تقدير العواقب وتبين له النتائج وهو مؤمن بأن :

كل امرئ راجع يوماً لشيمته   وإن تخالق أخلاقاً الى حين
فما لسانى على الأدنى بمنطلق   بالفاحشات ولافتكى بمأمون
عف يؤوس إذا ماخفت من بلدٍ   هوناً فلست بوقّاف على الهون(١٣)

وعفة النفس تورث الانسان الحلم والرفق ولين الجانب ، وحتى لو طلب الإنسان نوال الآخرين فلا ينبغى له أن يتساقط أمامهم ذلة ومهانة ، فيكفى أن ينال نوالهم بترفع وإباء ، فلا عفة مع الضعة أو ذل النفس ، وفى هذا الموقف يصور لنا الشاعر عدى بن زيد(١٤) فى شكل الوعظ والإرشاد كيف يكون الإنسان بطلاً حتى فى سؤاله العطاء :

إذا أنت طالبت الرجال نوالهم   فعف ولاتأت بجهد فتنكد
ستدرك من ذى الفحش حقك كله   بحلمك فى رفق ولما تشدد

وفى محيط عفة النفس وإيثار الجوع على السؤال أو طلب الآخرين يبرز عنتره العبسى(١٥) فى بيت مضمون البطولة النفسية إذ استطاع أن ينال من الجوع خير مأكل وأحسنه .

ولقد أبيت على الطوى وأظله   حتى أنال به كريم المأكل

وهذا المعنى المغرق فى تصوير عفة النفس هو الذى دفع عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى الإعجاب بعنترة حتى أنه نقل صورة البطولة التى رسمها عنترة الى شخص

الرسول ﷺ . فلقد سمع عمر من ينشد ذلك البيت من قول عنتره . فقال : ذاك رسول الله ﷺ (١٦)

ومن عفة النفس كذلك أن يرضى الإنسان بما قسم الله له . وهذه قضية يصعب الفصل فيها خصوصاً فى العصر الجاهلى فحياة السطو والإغارة والنهب والسلب كانت السائدة بينهم وملكت على الناس افئدتهم . والغنىّ عندهم من كثر ماله وقطعانه وبسط سلطانه على الآخرين . ولكن الشاعر قيس بن الخطيم(١٧) يضع لنا قاعدة عريضة فى غنى النفس عندما يعف الإنسان عما بيد الآخرين ويقنع بنصيبه فى حياته . فإن كان كذلك فهو السعيد المطمئن . وإن تطلع الى ماعند الآخرين فويل لنفسه مما كسبت يداه من الطمع فيما عند غيره ولذلك يرى بثاقب رأيه أن :

غنى النفس ما استغنى غنى وفقر النفس ماعمرت شقاء

وما أحسن البطولة النفسية عند عنترة العبسى حين جهر أنه ماكان يدخل المعارك طمعاً فى الغنائم رغم أنه لم يكن من الأثرياء بل كان يقنع بما يجده فى حياته ومايجعله فى رفعة نفسية . فيصرخ بذلك لعبلته(١٨) :

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمِ
يخبرك من شهد الوقائع أننى أغشى الوغى وأعف عند المغنم

ولايقف الشنفرى عند إعلان عفة نفسه حين يتناول الطعام بصحبة الآخرين . وهو أحوجهم الى ملء بطنه وسد حاجته ولكنها العفة النفسية التى توصله إلى أن التفضل على الآخرين غايته . وكأنما يضع لنا قاعدة تربوية أخلاقية ينبغى على كل إنسان إدراكها ليقضى على الشره والطمع لما ملكه الغير . فإذا فعل الإنسان ذلك - ولو كان فقيراً كالشنفرى - فهو الغنى المتفضل :(١٩)

وان مدت الأيدى الى الزاد لم أكن   بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجل
وماذاك الا بسطة عن تفضل   عليهم وكان الأفضل المتفضل
وأعدم أحيانا وأغنى وإنما   ينال الغنى ذو البعدة المتبذل

ويؤكد الشاعر الأعشى من معانى عفة النفس أن يبتعد الإنسان عن الحسد ؛ فالحسود مريضة نفسه طامعة فيما وُهبه الغير، ودائما يضعف فى كل المواقف ، والحسد يمحق النعمة من الآخرين، فالأحرى بالإنسان أن يبعد مطامعه عن الناس ويقضى على تفكيره السيئ فى امتلاك ماليس له ، وما أحسن أن تكون العلاقة بين الناس أساسها عفة النفس :(٢٠)

ولاتحسدن مولاك إن كان ذا غنى   ولاتجفه إن كنت فى المال غانيا

وهذا أبو ذؤيب الهذلى يعطى لنا تصوراً كاملاً عن مقاومة شره النفس وإعادتها لعفتها التى فطرها الله عليها ، وأن على الإنسان أن يكون قائداً لها موجها إياها الى الكمال والعفة ويردها الى الطريق المستقيم متى أرادت الانحراف عنه ، فنفس الإنسان هينة طائعة متى أخلص المرء فى معاملتها وتسير كيف يوجهها ، ولهذا فإن الشاعر يرى أن الإصلاح وقت الانحراف والتعديل وقت الاعوجاج، وأن النفس العفيفة تقنع بما يقدم لها من أوجه الخير والإصلاح وتلك هى البطولة فى القبول(٢١) :

فالنفس راغبة إذا رغبتها   وإذا تُردُّ الى قليل تقنع

ويقف داعية السلام فى العصر الجاهلى الشاعر زهير بن أبى سلمى مشيراً الى موقف الإنسان الذى لايكرم نفسه ولايعفها عما يشينها من ذل ومسألة ، أو يخضعها لهوى الآخرين وتسييرهم إياها ، فيرسم للإنسان طريقة إعزاز نفسه بقوة الدفاع عنها والسيطرة عليها ، وكل ذلك رسم لبطولة الشمائل الإنسانية ، وحق لزهير أن يتولى ذلك، فهو الذى

استطاع ان يخلد دعاة السلام فى العصر الجاهلى بنظمه ويهبهم أوسمة شعرية خيراً من هباتهم لإيقاف نزف الدم فى حرب داحس والغبراء . فما أجدره حين يقوم واعظاً ويخطط للعفة النفسية بقوله :

ومن لايزل يسترحم الناس نفسه ولا يعفها يوماً من الذل يندم

ومن عفة النفس أن يتحكم الإنسان فى نفسه حين تحدثه بالسوء . فلقد فشت الفاحشة فى العصر الجاهلى وترنم بعض الشعراء وتطاولوا فى مجال الفضيحة والسطو على نساء الغير والنوال منهن واعتبروا ذلك من محاسن الرجال وقوة سطوهم . فى حين نجد بعض الشعراء من أمثال عنترة العبسى يهتف بملء فيه عن عفة نفسه وحميد خلقه فى أنه حتى ولو غنم بأنثى فلا يقربها اغتصاباً . أو يراودها عن نفسها خيانة . وإنما يقدم على الزواج منها بعد أن يمهرها وتلك بطولة نفسية تتجلى فى العبد المنبوذ ولكنه العفيف المشهود له بذلك حيث يقول :(٢٢)

ما استمت أنثى نفسها فى موطن حتى أوفى مهرها مولاها

ومن صور عفة النفس ان يشعر الانسان بمكانته فى المجتمع فى نفسه ومع الآخرين . وان يحدد موقفه من الجميع ويتبادل معهم نظرات الإكبار والاحترام فإن مالوا الى خذلانه أو التعفف عنه فسرعان مايفلت من شباك حقدهم وغيظ أنفسهم فمن لايكرم نفسه لايكرمه الناس . ويرسم لنا الأعشى(٢٣) كيف يتعامل الإنسان مع الآخرين من الذين يريدون إذلاله فعليه أن يترفع عليهم ويعف بنفسه عن دناياهم حتى وإن كانوا من أقاربه وذوى رحمه، فمن هان على نفسه هان على الناس واستصغروه . وتربية المرء على العزة وعفة النفس خير له من ان يكون ذنبا يتبع صاحبه أينما حل . ويعتذر اليه كلما أخطأ فيستضعفه كلما تهاون فى إنسانيته وتمادى فى إمعته . وما الرجل الحق إلا الذى يقف بشخصيته وقد

ازدانت عفة وكمالا ولينظر دائما الى قول الشاعر :

وإن بشرَ يوماً أحال بوجهه عليك فحل عنه وإن كان دانيا

ونختم لوحات عفة النفس واكرامها بما خلده الشنفرى حيث حرص على رفع الرأس والبعد عن ذلة النفس وعفتها عن مجال الإهانة وهجر محيط من يريدون شقوتها ، حتى سارت أبياته من مضمون الحكمة الخلاقة عبر العصور، وينظر لمن تحلى بها أنه من أصحاب البطولة النفسية والشمائل الانسانية(٢٤)

لعمرك ما فى الأرض ضيق على امرئ
سرى راغباً أو راهباً وهو يعقل
وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى
وفيها لمن خاف القلى متعزل

ويضيق المجال عن ذكر كل لوحات عفة النفس فى الشعر الجاهلى وكلها تفيض بعنصر البطولة النفسية ، وكلها من رائق الشمائل فى إباء الذل والتسامى فوق مايصيب وكأن الإقدام فى ميدان الحروب وإحجام النفس فى مجال الفضيلة والعفة يسيران فى خطين متوازين ، فمهما كان الاندفاع والكر والفر كان التعقل والتريث لإكرام النفس بعفتها ورفعة مكانتها ..

ولقد اشترك شعراء الجاهلية من فرسان ودعاة سلام وصعاليك وأثرياء القوم فى الدعوة الى عفة النفس وتجميلها بوفور الصفات التى تجعلها فى مكانها اللائق، فالإنسان انسان فى عفته ولو اختلف مشربه .

رعاية الجار :ـ

إنه لمن دواعى العجب أن نجد فى الشعر الجاهلى أنماطا من الشعراء يحترمون الجار

ويقدرون حقه فى الوقت الذى كانت هناك جماعات منهم تتلصص فى غير حياء على عورات النساء وتشهر بهن فى غير استحياء بمقطعات أو ضمن المعلقات ، ومدعين بذلك قصب السبق فى ميدان الفاحشة وماكانت النسوة اللائى شهرن بهن الا من جاراتهم .

فكان لابد أن تظهر البطولة النفسية وأن تكون حماية الجار والحرص على الدفاع عنه ، والإسراع لنجدته وحفظ حرمته موضوع البطولة بأوضح صورها ، ولقد حض القرآن الكريم فى آيات عديدة على اكرام الجار والحفاظ عليه ، ومنها قوله تعالى « واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجُنب والصاحب بالجَنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لايحب من كان مختالا فخورا »(٢٥) . **كما أوصانا الرسول الكريم ﷺ بالجار فى قوله**« مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » . فمن كان فى الجاهلية حافظا لجاره حاميا له فهو البطل بلا منازع وهو الذى استحق أن يجمع من الشمائل الإنسانية مايخلد ذكره ، وهذا ما ألفه الأخيار من شعراء العصر الجاهلى ودأبوا على الحث عليه والتمسك به، فأحبطوا أنفسهم الأمارة بالسوء وقهروها فى ميدان الفضيلة والبعد عما يشينها خاصة فيما يتعلق بحقوق الجار والحفاظ عليه بكل معانى الحفاظ وبدأوا بأنفسهم فيما يتعلق بسلوكهم تجاه جيرانهم ، ومن ثم أشادوا بحماية الجار لأنه استجار بهم وأعطوه عهداً أن ينصروه ، مما جعلهم يعظمون الاخلاق فلا ينقضونها مهما قاسوا بسببها من حروب(٢٦) .

فعهد الجار والصديق واحد ، وكلاهما له الحق الإنسانى كما بينه الشاعر زهير بن أبى سلمى، وعلى المجتمع أن يعترف بذلك ويباشر تنفيذه حتى يعيش الناس جميعا فى اطمئنان وأمان من الغدر والسطو ، وتبرز عاطفة الإخاء، وحق الدفاع عن الجار فيما اتفق عليه مهما كانت النتائج :

وجار البيت والرجل المنادى   أمام الحى عقدهما سواء

ويعلن الشاعر عوف بن عطية(٢٧) كيف يمنع الظلم والغدر عن جاره حتى يمنحه

الأمان والاطمئنان فى حياته ويعلن ميثاق شرف بأن الجار ممتنع من الغدر والسطو والفزع حيث أجير ، وهذا أمر تطيب به النفوس :

وأمنع جارى من المجحفا ت والجار ممتنع حيث صارا

وعن الوفاء بعهد الجار يقول طرفة بن العبد مفتخراً بأنه أوفى الناس عهدا لجاره(٢٨) :

ومن كان ذا جارٍ يرجى وفاؤه فجارى أوفى ذمة وهما أبَر

وكثيرا مايقرن الشعراء الجار بحق الضيوف ، ولعل السبب فى ذلك أن الضيف يعيش دائما فترة ضيافته فى أمان ورغد العيش ، فكون الجار ملازماً له فى مسلك الجيران أمر يدل على سعة الصدر وغلبة جانب الخير والمؤازرة ويسرحال،ولأن الضيف ناقل أخبار مضيفه فالجار دائما يتحدث بالحسنى عن جيرانه متى كانوا له مدافعين ولحرمته حافظين ، فما أحسن تلك الشمائل أن تكون مادة شعرية يتغنى بها الناس وتتناقلها الاجيال ، وكثيرا ما كانت فى شكل وصايا وغالبا ماتكون الوصية من والد لابنه،ولابد أن تكون الوصية لخيرى الدنيا والآخرة ولرفعة مكانة الأبناء وتخليد ذكر آبائهم ، وهذا ما أبرزه الأعشى فى لوحته الفنية حيث قال :(٢٩)

إن الأعز أبانا كان قال لنا أوصيكم بثلاث إننى تلف
الضيف أوصيكم بالضيف إن له حقاً علىَّ فأعطيه وأعترف
والجار أوصيكم بالجار إن له يوماً من الدهر يثنيه فينصرف
وقاتلوا القوم إن القتل مكرمة إذا تلوى بكف المعصم العرف

وبنفس الصورة ينطلق الشاعر الجاهلى عمرو بن الأهتم(٣٠) موصياً ابنه بحفظ جاره وضيفه فى الوقت الذى لايحفظ فيه جار ولايقرى فيه ضيف لشدة الزمان وتخلى الناس

الأدنياء عن رعاية جيرانهم ، ويرونماينزل بهم من إهانات ولايدفعونها . فهنا تظهر النخوة العربية الأصيلة والخلق الحميد ويهتف الشاعر بابنه الا يفعل مثلما يفعل الآخرون، وإنما عليه أن يشد من أزر جاره ويصد عنه عوادى الأيام، ويظهر له سماحة الخلق وطيب الخاطر فإنه آنذاك أحوج مايكون الى من يواسيه ويحفظ جواره

لقد أوصيت ربعيَّ بن عمرو   إذا حزبت عشيرتك الأمور
بأن لاتفسدن ماقد سعينا   وحفظ السورة العليا كبير
وجارى لاتهيننه ، وضيفى   إذا أمسى وراء البيت كور
أصبه بالكرامة واحتفظه   عليك فان منطقة يسير

أما الشاعر سلامة بن جندل(٣١) فيجعل سعادة الجار والضيف أمراً مألوفاً لديهم . فهم دائما يحرصون أن تكون للجار مكانة مرموقة يشهدها كل الناس . فجعل سعادة الجار والضيف لاتعادلها سعادة لهم إذ يهبونهما خير مالديهم عن طواعية نفس وطيب خاطر . فهم يغامرون على نياق سمينة غالية الثمن لتوزع لحومها على السائلين احتفاءً بالجار والضيف . ويظهرون من ألوان الطعام مايدل على كرمهم ويعطى الصورة الكاملة للبطولة النفسية فى حماية الجار وإكرامه وإكرام الآخرين حباً فيه وترحيبا به .

إنا إذا غربت شمس أو ارتفعت   وفى مباركها بزل المصاعيب
قد يسعد الجار والضيف القريب بنا   والسائلون ونغلى ميسر النيب

وكانت هذه أسعد لحظات حياة العربى فى العصر الجاهلى أن يظهر الكرم والعطاء خاصة فى حضرة الجيران والضيوف وملاعب الشباب وحكمة الشيوخ وهى من الشمائل الإنسانية المعدودة عندهم .

ويهتف الشاعر مالك بن حريم(٣٢)أنه حتى لو كان أدركه الكبر واشتعل الرأس شيباً إلا أنه آل على نفسه أن يظل وفياً لخصال أربع . ومنها حماية الجار والا يقذعه بفاحش

القول حتى ولو تفاحش الناس جميعا على جيرانهم . فهو الحافظ للعهد الساهر على راحة جاره وضيفه ، المعلن عن كرمه وعطائه لكل الناس . فما أجمل هذه الشمائل متى اجتمعت للمرء وهذبت نفسه وهيأنه لمحبة الناس وكسب ودهم :

فإن يك شاب الرأس منى فإننى   أبيت على نفسى مناقب أربعا
فواحدة ألا أبيت بغرة   إذا ماسَوام الحى حولى تضوعا
وثانية ألا أصمت كلبنا   إذا نزل الأضياف حرصا لنودعا
وثالثة الا نقذع جارتى   إذا كان جار القوم فيهم مقذعا
ورابعة الا أُحَجِّل قدرنا   على لحمها حين الشتاء لنشبعا(٣٢)

وكثيرا مافخر الشعراء بإكرام جيرانهم ، ومن ذلك ماقاله الشاعر المثقب العبدى (٣٤) من أنه يرعى حق جاره ويسهر على راحته وان الخلق الكريم لن يضيع ذكره بين الناس ، ورعاية الجار واجب حتمى عليه :

أكرم الجار وأرعى حقه   إن عرفان الفتى الحق كرم

ويسوق صاحب موسوعة الشعر العربى قصة عن الشاعر دريد بن الصمة(٣٥) تحت عنوان « مال الجار » لابد من ذكرها فى هذا المقام : كان بين بنى الحارث بن كعب ، وقوم دريد ، إغارات وثارات . وقد قتل بنو الحارث خالد بن الصمة فى احد ايامهم فهددهم دريد . ورد عليه عبدالله بن عبدالمدان الحارثى ، من سادة نجران ، وكان أن أنس بن مدركة الخثعمى ، حليف الحوارث أغار على جشم فأسر وسبى واستاق أموالا لأحد جيران دريد . وخلف ذلك بنجران وعجز دريد عن طلب ذلك بالقوة ، فلجأ الى السؤال . فمدح يزيد بن عبدالمدان سيد نجران ، ثم قدم عليه ، فرد السبايا وفك الأسرى . وزاده أموالا وفى ذلك قال الشاعر مادحاً وسائلا لحق الجار :

بنى الديان ردوا مال جارى   وأسرى فى كبولهم الثقال
وردوا السبى إن شئتم بمَنٍّ   وإن شئتم مفاداةً بمال
فأنتم أهل عائدة ، وفضلٍ   وأيدٍ فى مواهبكم طوال
متى ماتمنعوا شيئاً ، فليست   حبائل أخذه غير السؤال
وحربكم بنى الديان حربٌ   يغص المرء منها بالزلال
وجارتكم بنى الديان بسل   وجاركم يعد من العيال
بنى الديان إن بنى زيادٍ   هم أهل التكرم والفعال
فأولونى بنى الديان خيراً   أقر لكم به أخرى الليالى

فهذه براعة من الشاعر أن يعتب عليهم مادحاً كيف يكون جارهم فى منعة ولايستطيع هو أن يخلص جيرانه ويحميهم.

لقد قال صاحب البطولة النفسية الأول محمد بن عبدالله ﷺ « ليس منا من بات شبعان وجاره إن علم به جوعان » فنجد هذه البطولة قد ألفها العربى الأبى فى جاهليته وأشاد بها الشعراء وربطوا بينها وبين حق الجار المشروع من حماية ورعاية عهد . فهذا الشاعر الأعشى(٣٦) يشيد بقوم ممدوحه عامر بن الطفيل بأنهم :

المطعمون اللحم إذا ماشتوا   والجاعلون القوت على الياسر(٢٧)
والشافعون الجوع عن جارهم   حتى يرى كالغصن الناضر

والشاعر نفسه لايرى هذه البطولة فى قوم هجاهم بأنهم يملئون بطونهم ويتركون جيرانهم جوعى لايجدون مايطعمون ، وفى ذلك عيب وإهانه لاتغتفر متى ثبتت حقيقتها أمام القوم،فلا يفعل ذلك إلا من حقرت نفسه وضعفت عزيمته ، والأولى بالأبى الشجاع أن يمد العون من الطعام لجيرانه حتى تتآلف القلوب وتصفو النفوس وتلك من شيم الكرام(٣٨) :

تبيتــون فى المشتــى ملاءٍ بطونكم   وجاراتــكم غرثــى يبتــن خمائصا
يراقبــن من جوع خلال مخافةٍ   نجــوم السماء الطالعــات الشواخصا

وتلك خصلة من أحط الخصال : ألا يصيب الرجل جاره مما ساقه الله اليه من رزق ، ويرعى حقه متى قل مورده ، أو نزلت به النوازل أو أصابته حاجة .

ونجد الشاعر عروة بن الورد[٣٩] يحرم على نفسه لونا من الطعام إذا علم أن بيت جاره قد خلى من ذلك الطعام ، وفى ذلك مشاركة وجدانية ، وهـى من الخصـال الاسلامية الحقة،فقد أمرنا الرسول الكريم ﷺ الا يؤذى الانسان جاره برائحة قدره . وماذلك إلا ليشعر الجار بعدم استطاعته ان يكون له نفس لون الطعام الذى يعد بالقِدر ، ويشعر الإنسان بعجزه عن مجاراة جاره ، فما بالنا لو وجدنا تلك الخصلة عند هذا الشاعر الجاهلى حين يقول :

فإن حُميَتَنــا أبــداً حرامٌ   وليس لجــار منزلنــا حميت[٤٠]

ونرى هذه الصورة الإنسانية فى شعر حاتم الطائى[٤١] من أنه يرعى شئون جيرانه حال غياب رب الأسرة عنهم ، ويقدم لهم من الوان الطعام ماتشتهيه الأنفس متى نضجت قدوره وهفت عليهم رائحتها ، ويحرص أن يصلهم هذا الطعام فى خفاء مادام رب الأسرة غائبا فلا يجرح شعورهم ولايسىء الى سمعتهم ولايتجسس عليهم بل يتحسس اخبارهم ليقضى حوائجهم وراء حجاب ، وتلك شيمة العفيف الأبى النفس وبطولة نفسية الشريف :

فلا وأبيك مايظــل ابــن جارتى   يطــوف حوالى قدرنــا مايطورها
وماتشتكينــى جارتــى غــير أنها   إذا غاب عنهــا بعلهــا لا أزورها
سيبلغهــا خــيرى ويرجــع بعلها   اليهــا ولــم يقصر علىَّ ستورها

ومن البعد عن مواطن الريبة وحفظ حقوق الجار: ألا يزور الرجل بيت جاره أو يحاول رؤية زوجه مادام رب البيت غائبا . ولكن يحرص أن يقدم لها ولأولادها مطلبهم ويسهر على راحة الجميع عن بعد . وهذا ما افتخر به عنترة العبسى (٤٢) من أنه يزور جارته حال وجود بعلها واصلا لرحمه . فإن خرج بعلها غازياً لايقترب من دارها حفاظاً على عرضها وعرضه وصونا لها . وتلك بطولة نفسية، وخصلة الشرفاء الذين يحملون حميد الصفات :

إنــى امـرؤ سمـح الخليقـة ماجدٌ   لا أتبـع النفس اللجـوج هواها
أغشى فتـاة الحـى عنـد حليلها   فإذا غزا فى الجيش لا أغشاها
وأغض طرفى إن بدت لى جارتى   حتـــى يوارى جارتـــى مأواها

أما عبيد بن الأبرص (٤٣) فيشيد فى شجاعه وعزم وإقدام كيف يحمى قومه كل من تجب عليه الحفاظ عليهم ، ويدخل فى ذلك كل من استجار بهم أو جاورهم . كما تجب عليهم رعاية شئون أراملهم وأيتامهم حتى لايشعر هؤلاء الضعفاء بقسوة الحياة وتتخطفهم ذئاب البشر . وتلك من الحقائق الثابتة . التى تحتاج الى أصحاب الخلق القويم ليكونوا عونا وسنداً :

نحمـــى حقيقتنـــا ونمنـــع جارنا   ونلف بـــين أرامـــل الأيتام

وفى مجال حماية الجار والسهر على راحته ومنع الجوع أن يطرق بابه وحفظ أولاده ورعاية بيته فى غيبته يدخل بعض الشعراء عدم إفشاء سر الجار . والابتعاد عن الفضول لمعرفة ماخفى منه . فعفة النفس لازمة للانسان كفرد صالح . وأكثر لزوماً حين يتطلع أو يعرف من أسرار جاره شيئاً فالأولى به ان يكون ملتزماً بالميثاق الأخلاقى . وفى مثل هذه المواقف تظهر البطولة النفسية الحقيقية فيمن يحفظ السر ولايجاهر بالفضيحة فلكل بيت حرمة وأسرار.

فيردد الشاعر قيس بن الخطيم(٤٤) أنه لايخون جاره بالنظر الى حليلته ولايضع نفسه موضع الريبة ، ويمنع أن يتعرض لذم الناس لحسن مسلكه مع جيرانه دائما فهو يرتاح لذلك راحة نفسية لاتضارعها سعادة ، فهو طاهر الذيل متناسل من أطهار :

وهل يحذر الجار الغريب فجيعتى   وخونى وبعض المقرفين خئون
وما لمعت عينى لغرة جارة   ولا ودعت بالذم حين تبين
أبىْ الذمَ آباءُ نمتنى جدودهم   ومجدى لمجد الصالحين معين

ويصرح حاتم الطائى فى نفس محيط عدم التطلع لأسرار الجار والحفاظ عليه بخلق الكريم وخصال الإنسان ، فما حاول التطلع لجاره ومعرفة سر بيته ليفضحه : لانه يعلم يقيناً أن الكريم من اكتملت شمائله المعنوية والحسية ، فما احسن قوله(٤٦) :

إذا ماريت أختل عرس جارى   ليخفينى الظلام فلا خفيت
أأفضح جارتى وأخون جارى   معاذ الله أفعل ماحييت

ويكمل الصورة البديعة من اخلاقه فى نفس المعنى بقوله :

فأقسمت لا أمشى الى سر جارةٍ   مدى الدهر مادام الحمام يغرد

ولابد من عرض لوحة فنية أخلاقية ثانية للشاعر حاتم الطائى تفيض طمأنينة وأمانا للإنسان الذى يجاور حاتما ، فهو دائما يغض بصره عن جاراته وكأن فى سمعه وقراً من حديثهم وذلك من شمائل كرام الناس خلقاً ، فكما تعود أن يستر حاجات الناس جميعا بكرمه وعطاياه وتقديم العون لهم عفيفا كريما ساتراً لجارته بصراً وسمعاً ؛ وتلك بطولة نفسية لاتتوفر لكثرة الناس :(٤٨)

وماضر جاراً يا ابنة القوم فاعلمى   يجاورنى ألا يكون له ستر
بعينى عن جارات قومى غفلة   وفى السمع منى عن حديثهم وقر

ويبرز الشاعر عمر بن كلثوم صورة عن حمايته للجار من لون جديد فى انهم كانوا يدافعون عن ديار الجيران قبل الدفاع عن جيرانهم . ويدرءون أى أخطار تحيق بالجيران قبل أنفسهم . وفى ذلك برهان طيب عن الإيثار الخلقى الذى يشكل البطولة النفسية للانسان . فهم يدفعون الشر عن جيرانهم . ويدفعون عنهم الديات متى كانت هناك غرامات حرب حفاظا عليهم وإبقاءً على حسن جوارهم . فما أحسن هذا العمل وأنبل صفات قوم الشاعر :(٤٩)

ونحن إذا عماد الحى خرت   على الأحفاض نمنع من يلينا
ندافع عنهم الأعداء قدماً   ونحمل عنهم ماحملونا

ويكمل الصورة فى انهم لاينتظرون الدخول فى الحرب دفاعاً عن الجار . ولكن بمجرد أن تلوح لهم سيوف الأعداء قد سلت من أغمادها يكون أول عمل يقومون به هو إحاطة الجيران بكل حماية ويكونوا جبهة دفاعاً لما يتوقع من هجوم الأعداء واغارتهم . ويبدءون بتركيز القوة الدفاعية حول بيوت الجيران :(٥٠)

ونحن المانعون لما يلينا   إذا ما البيض زايلت الجفونا

ويربط عروة بن الورد(٥١) الشاعر الصعلوك بين نفسه وجاره ، فى أنه إذا أصاب غنى كان لابد أن يقاسم فيه جاره ، وهو ذلك الرجل الذى تعود حياة خطف الرزق من غيره ويكفيه مايتبلغ به من صعلكته . ولكنه يضع موثقاً على نفسه أنه متى صار غنيا فلن يكون أنانيا فى غناه : وإنما هى سماحة خلقه وإيثاره من هو فيه من حاجة ماسه لما يصيب وتلك خصال حميدة :

فإذا غنيت فإن جارى نيله   من نائلى وميسَّرى معهود

ويعرض الأعشى فى ابيات صورة فريدة فى الحفاظ على الجار متى تكون الحرب ، ويكون من نتائجها أسر وسبايا من الطرفين . فيقف معاتبا الأعداء ومدافعاً عن قومه بادنا بأنه لايصح أن تستباح حرمات جيرانه فى الوقت الذى يحافظ فيه اعداؤهم على حرمات جيرانهم ، ولم يتعرض الشاعر لأهله وذويه وأولاده وانما قَدَّم عليهم جميعا حق الجار وحمايته ، ورفض كل مايثير حفيظته قبل الكلام عن رحمه . فما أبدع هذا الإيثار من خلق كريم ، وما أجمل ان يرى الإنسان البطولة النفسية فى كلام الشاعر :(٥٢)

أجارتكم بسل علينا محرَّم   وجارتنا حل لكم وحليلها
فإن كان هذا حكمكم فى قبيلة   فإن رضيت هذا فَقَلّ قليلها

ونختم تلك الصورة البطولية بما قاله حاتم الطائى فى ان يختار الانسان جاره كريم الخلق حتى يتمثل به فى كل تصرفاته ، ويقارنه فى كل شمائله ويحاكيه فى سماحة خلقه:(٥٣)

فجاور كريماً واقتدح من زناده   وأسند إليه ان تطاول سُلّماً

صلة الرحم :

إن صلة الرحم علاقة فطرية بين الإنسان وذويه . واحيانا تكون فى توافق تام أو تنافر فيما بين الأفراد بعضهم وبعض متى دب بينهم الشقاق وسعت اليهم الخصوبة بسمومها ولعب الشيطان بالأفئدة وتخيل الإنسان انه يستطيع الحياة فرداً . وإذا كانت الانفصالية بين افراد الأسرة الواحدة قد سادت بين القبائل فى العصر الجاهلى الا من الدعوة الى إغارة أو سطو : فإننا نجد فى شعر ذلك العصر مايدل على أن بعضهم جنح الى شمل الأسرة وأخذت دعواهم تطوف فى انحاء الجزيرة العربية وتجمع ماتفرق منهم . وأكد القرآن الكريم ذلك فى العديد من الآيات مبيناً أن الخير والسعادة فى الدارين فى صلة الرحم

ووصل ما انقطع والتسامح بين أفراد الأسرة الواحدة والبعد عن دعوة الشاعر الجاهلى الذى كان يدعو للإغارة حتى على الأشقاء :

وكنا إذا أغرنا على جناب   وأعوزهن نهب حيث كانا
أغرن من الضباب على حلول   وضبة إنه من حان حانا
وأحيانا على بكر أخينا   إذا مالم نجد إلا أخانا

بينما نجد الدعوة الصالحة فى الآيات الكريمة « وإذْ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لاتعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذى القربى واليتامى والمساكين ..»(٥٤) « ويسألونك ماذا ينفقون قل ما ما أنفقتهم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وماتفعلوا من خير فإن الله به عليم »(٢٥) « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين .. »(٥٦) « قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا ولاتقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم »(٥٧) « وقضى ربك الا تعبدوا إلا اياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما إف ولاتنهرهما وقل لهما قولا كريماً . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا »(٥٨)

فإذا كانت هذه هى نقاط اصلاح الفرد وتحسين العلاقة بينه وبين ذويه وصلة رحمه على أسس اسلامية مجيدة فإن الأمر لم يخل أن نجد أمارات صلة الرحم والحض عليها عند بعض شعراء الجاهلية . ولهذا يمكن أن نعتبر ذلك ضرباً من البطولة النفسية التى تخطت قواعد المجتمع وأسست نهجاً إنسانيا خصصت له من الشمائل مايجعله مقبولا فى سلوك البشر . فدعوا الى الكف عن العناد والقتل والتدمير والتبصر فى العواقب وحفظ القوم ودفع غائلة الأعادى عنهم وتوطيد أواصر المحبة والأخوة بين الجميع , فالشاعر فى العصر الجاهلى أو فى غيره من العصور إنسان فيه نزعه الخير ونزعة الشر . وإن تغلبت الثانية فى الجاهلية فقد استيقظت الأولى وحققت مكاسب إنسانية يمكن الإشّادة بها . فهذا زهير بن

ابى سلمى(٥٩) يعلن فى إشارة صريحة كي يكون محاطاً بأهله مقرباً لعشيرته حافظاً لرحمه فى بيته المشهور :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله   على قومه يستغن عنه ويذمم

فالإحسان الى الأهل والعشيرة أول درجات صلة الرحم . وبه تطمئن القلوب الى سيادة الخير ، وتصفو النفوس من الحسد ، وتزداد المودة . بينما إذا قطع الإنسان القادر صلته لرحمه وتباعد عنهم ومنع عنهم فضل مالديه من مال أو حسن قول أو بشاشة لقاء فهو المكروه المذموم المبعد من عِداد الأسرة . بل والمحتقر من الجميع : لانه استغنى عن أردية الانسانية فعاش عارياً .

وإن هذه اللفتة الكريمة من زهير تؤكدها الآية الكريمة « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى »(٦٠) .. « ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين ..»(٦١) .

ومن صلة الرحم أن يكون الإنسان لين الجانب لأهله ، وهذا من الأمور الصعبة الوجود فى العصر الجاهلى : فهم قوم كأن قلوبهم قدت من الحجارة فى غالبيتهم ، وتصلب فكرهم فلا ينقاد الإنسان للنصح بسهولة فكانت فيهم الغلظة والفظاظة ، ومن طوع نفسه للين عُدَّ من القلة النادرة ، وذلك مما دفع الشعراء أن ينادوا بلين الجانب موصولا بصلة الرحم ، وفى ذلك يقول الأعشى(٦٢) يحض الناس على صلة الرحم ولين الجانب ونصرة العشيرة متى نزل بها مكروه ، فليس الشر دائما طاغياً على الناس ولكن ربما تلوح أمارات الخير فى أفق الطيبين الطائعين فيعملوا بعمله :

ولاتزهدن فى وصل أهل قرابة   ولاتك سبعاً فى العشيرة عاديا
ولاتخذلن القوم إن ناب مغرم   فإنك لاتعدم الى المجد داعيا

وبنفس طريقة عرض الصورة السابقة يتقدم الشاعر عبيد بن الأبرص(٦٣) فى أبيات

من الحكمة يزينها بالدعوة الى صلة الرحم فإنهم ذخر للإنسان وأولى به أن يمد لهم يد الصفح والعون قبل أن يمدها للأباعد . فالمرء قليل بنفسه كثير بأهله :

ولاتزهدن فى وصل أهل قرابة لذخر وفى وصل الأباعد فازهد

ويعلن الشاعر نفسه(٦٤) فى صراحة تامة تقديره لوالده وانه يبذل قصارى جهده كى يصون أباه ويحفظ عرضه . وإن الانسان متى كان باراً بوالديه أو بأحدهما فهو الحميد الصفات الكريم الخصال . وكذلك صيانة العرض من أسس صلة الرحم حتى يعيش الجميع مرفوعى الرأس أعزاء النفوس . ويعرض كذلك أنه معطاء لأهله فماله ليس له . وإنما يبذله إنفاقاً لحاجات قومه وحفاظاً لهم من الفاقة . فما أحسن أن يدرك الشاعر الجاهلى بفطرته تلك الخصال . ويستطيع الانتصار على نفسه الأمارة بالسوء ليحقق البطولة المنشودة ويرقى فى مدارك الأشراف،فإن تعديل سلوك البشر فى عصر لم تكن فيه المفاهيم النفسية والاجتماعية قد دونت أمر صعب،ولكنها فطرة الخير التى فطر الله بعض الناس عليها فى العصر الجاهلى لتكتمل بها شمائلهم حيث يقول :

وأكرم والدى وأصون عرضى وأكره أن أعد من اللئام

ويمثل كرم الشاعر حاتم الطائى للضيوف وضرب المثل به فى محيط الجزيرة العربية كانت دعوته الخيرة الى صلة الرحم . فإكرام الأهل والعشيرة بأن يكون الإنسان متحملاً عنهم عبء صعوبة حياتهم ومتجاوزاً عن هفواتهم وحلالا لمشكلاتهم وكافاً لأذى الغير عنهم أمر ليس بالهين . وإنما هى تعليات الكرم الخلقى التى تخفى على الكثيرين يبرزها الشاعر الكريم معدلا من سلوك البشر . حاثاً لهم على سلامة حياتهم بفضل مايقدمون لأهليهم من موائد المعروف التى تحفل بألوان الخصال الحميدة . وهو بذلك يضرب المثل فى الحلم وسعة الصدر . ويحفظ قومه من مفاجآت الزمن . فما أحسن أن يبقى ود الناس متصلاً ونفوسهم مطمئنة :(٦٥)

تحلم عن الأدنين واستبق ودهم   فلن تستطيع الحلم حتى تحلما
متى ترق أضغان العشيرة بالأنا   وكف الأذى يحسم لك الداء محسما

أما الشاعر الحادرة(٦٦) فإنه يصل رحمه بطريقة دفاعية أخلاقية أخرى ، فيحافظ عليهم ويرعى حقوقهم ويقف دون مس كرامتهم ويقيهم السوء بالمال الحلال الذى لاتشوبه شائبة : فإنه مال ينفق لغرض شريف وما أشرف من صلة الرحم ؟ فلابد أن يكون مالاً حلالاً تطمئن النفوس الى مصدره حتى يؤتى ثماره . فإذا لم ينفع المال ودعوته السلمية أول الأمر ورأى أن الضرورة قد فرضت عليه القتال حفاظاً على أهله وتخليداً لحسبه فلا مناص من ذلك . فهم السراع الى دخول المعامع ، والمنادى بعضهم بعضا حقنا لدماء العشيرة والتصدى لعاديات المغيرين . وتلك صفة إنسانية محببة لأن العاقل من أدرك أن الحرب دمار للمنتصر والمهزوم بنسب مختلفة . والأولى أن يدفع الإنسان الحرب بسلاح المال فإن قصر هذا السلاح أو فنى فلا مناص من عدة الدماء حتى لايقف الإنسان عاجزاً أمام ذويه . فالإقدام النفسى لفض الاشتباك سلميا خير وأبقى والا كانت الواقعة :

ونقى بأمن مالنا أحسابنا   ونجر فى الهيجا الرماح وندعى

فهذه صورة مشرفة لصلة الرحم والحفاظ عليه والعاقل من جعل هدفه لا إثم ولا عدوان بل دفاع ورد طغيان .

وإذا كان شعراء العصر الجاهلى قد تعرض الخيرّ منهم للدعوة لصلة الرحم ، فإن الشاعر طرفه بن العبد يعرض لنا مسألة انسانية تستحق التبصر والتأنى فى مضمونها ، وتلك هى قضية ظلم الأهل والأقارب . فالمتعارف عليه إنسانيا أن يكون الإنسان دافعاً الظلم عن ذويه حصنا لهم ضد الآخرين . أما أن يكون هو الظالم الغادر فهذا أمر يشق على النفس تصديقه وعلى العقل تصوره . والشاعر حين يعرض لنا هذه الصورة إنما يحقق بها دفع الظلم ويدعو الى ذلك وبخاصة فى مجال الأهل حتى يكون الرحم موصولا .

والبطل الحقيقى من يتحكم فى نفسه وقت الاندفاع للظلم ويحولها الى جانب الخير فتكون معطاء حانية .

ومرارة الظلم تشتد وتزداد عندما تكون فى محيط الأهل ووقعها أسوأ على النفس من السيف الباتر . والأولى ان يداوى الانسان إيلامه بوده ودفع عاديات الأعداء عنهم :(٦٧)

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة   على النفس من وقع الحسام المهند
إذا أنت لم تنفع بودك أهله   ولم تنك بالبؤسى عدوك فابعد

بطولات نفسية متفرقة :

أ ـ الحزم وقوة العزيمة :

من الأمور التى حث عليها شعراء الحكمة فى العصر الجاهلى ان يلتزم الانسان بالحزم فى القول فلا ينبغى أن يتحدث بقولة فى غير موضعها . فحين يرغب فى قول الحق فليقصد اليه مباشرة وأداته « نعم » ، وحين يريد نفى حديث لايروقه فليقصد اليه وأداته « لا » . وهذا مايعنيه المثقب العبدى(٦٨) فى أبياته التى تدل على البطولة النفسية متى تحكم الإنسان فى فكره وحدد رأيه حتى لايتردد فيكون مثار سخرية الآخرين . فالأولى بالإنسان أن يكون حديثه محدداً موجهاً للصواب فلا خذلان ولاندم . فإن ذلك أحفظ لهيبة الرجل وأجمل :

لاتقولن إذا مالم ترد   أن تتم الوعد فى شىء :نعم
حسن قول نعم من بعد لا   وقبيح قول لا بعد نعم
إن لا بعد نعم فاحشة   فبلا فابدأ إذا خفت الندم
فإذا ماقلت لا فاصبر لها   بنجاح الوعد إن الخلف ذم
واعلم أن الذم نقص للفتى   ومتى لايتق الذم يذم

ودار الشاعر زهير بن أبى سلمى فى مجال الحزم فى القول واثر البطولة النفسية فيه من أن الإنسان إذا لم يلتزم بالصراحة فى قوله ويبتعد عن فاحشه ومجالسة أصحابه أو الركون اليهم فلا يلومن الا نفسه فمثله كمثل صاحب جليس السوه ، اما أن يحرق بنار الكير أو تفسده مخلفات الفحم ، ويربأ بالحران يضع نفسه هذا الموضع ، وخليق به أن يقدر لرجله قبل الخطو موضعها وللسانه قبل النطق هدفه حتى تكون كلماته برداً وسلاماً على من يسمعه وأن يحقق قول الحق تبارك وتعالى « وقولوا للناس حسنا »(٦٩)

إذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنا   أصبت حليما أو اصابك جاهل

ومن الحزم فى القول الا يكذب الإنسان على نفسه ، فيوقعها فى حبال الغش ، فإن الرجل الذى يعوِّد ذاته على صدق القول ويبعد بها عن مهاوى الرياء ، وينأى بها عن تمنى اقتناء ماعند الغير ، ويقنع بما وهبه الله فهو البطل الحازم لأمر نفسه ، ففى سجل البطولة النفسية الا يفسق المرء ولايحسد ولايطمع فيما عند الناس وهذا ما اشار اليه الشاعر أفنون(٧٠) :

فلا خير فيما يكذب المرء نفسه   وتقواله للشىء ياليت ذا ليا

ومن الصفات الحميدة التى تدل على البطولة النفسية وتعتبر من شمائل الإنسان قوة التحمل وبث العزيمة القوية فى النفوس ، والارادة الحازمة ، فرحم الله امرأ عرف قدر نفسه ، فلا يحملها فوق طاقتها ، ويقف عند حدودها معلنا مقدرته ، وذلك من أمارات الرجولة التى عناها الشاعر المخضرم عمرو بن معد يكرب وكان قد نظم هذه الأبيات ضمن قصيدة فى جاهليته قبل ان يسلم حيث كانت فى موقف تزويجه(٧١) :

.إذا لم تستطيع شيئاً فدعه   وجاوزه الى مانستطيع
وصله بالزماع فكل أمرٍ   سمالك أو سموت له ولوع

وقد ساق **البحترى**(٧٢) ماقاله أحد الشعراء الجاهليين حاثاً على الإقدام فى الأمور .

والمضاء فى العزيمة بصدق وقوة وبسالة . والابتعاد عن التباطؤ والكسل فهما مثبطان للهمم، مهلكان للنشاط . كما ينبغى على الإنسان الا يكون متشائما، وألا يركن الى الخرافات والشعوذة . فقدر الانسان بيد الله وحده :

إذا ما أردت الأمر فامض لوجهه   وخل الهوينى جانباً متنائياً
ولا يمنعنك الطير مما أردته   فقد خط فى الألواح ماكنت لاقيا

وكذلك يعبر الشاعر الصعلوك تأبط شراً(٧٣) أنه يجب على الإنسان أن يحزم أمره . ومهما نزل به من خطب فليقابل ذلك بالصبر والتجلد ولايحيد عن جادة الطريق . أو يركن الى الفشل وأن يتحايل فى كل الأمور حتى يقضى حاجته عن اطمئنان نفس واقتناع . فهو حينئذ البطل المتحكم فى نزوات نفسه المهيمن عليها بقوة وعزم وصدق إرادة :

إذا المرء لم يحتل وقد جد جده   أضاع وقاسى أمره وهو مدبر
ولكن أخو العزم الذى ليس نازلاً   به الخطب إلا وهو للقصد مبصر

والحلم من عفة النفس وإكرامها . وقد أدرك تلك الحقيقة العديد من شعراء العصر الجاهلى : فهذا **النابغة**(٧٤) يحض الإنسان ان يكون حليماً متسامحاً فإن ذلك من عزم الأمور . وألا يركن الى الخيلاء فإنه لن يخرق الأرض ولن يبلغ الجبال طولا ؛ فلابد من الاعتدال عفافا للنفس وترفعاً عن مواطن الخذلان . فما جدوى التكبر والخيلاء لانسان تفنى نفسه :

ولاتذهب بحلمك طاميات   من الخيلاء ليس لهن باب
فانك سوف تحلم أو تناهى   إذا ماشبت أو شاب الغراب

وعن إكرام النفس يتحدث الشاعر حاتم الطائى (٧٥) مبرزا ضرورة إكرام النفس فمن هانت عليه نفسه سهل هوانها على الناس . وماكان الانسان ليضعف أمام قوة نفسه ويخذلها :

ونفسك أكرمها فانك تهن   عليك فلن تلقى لها الدهر مكرما

وبنفس الطريقة يحدثنا الشاعر مالك بن حريم(٧٦) عن اكرام النفس وابعادها عن الفحش والشح ، ويزجرها عن أمور كثيرة تشينها حتى لايكون هدفاً للوم الناس ، وهذا تأكيد لمن يتبصر فى الأمور ويحزم فعله وهى سمة محببة :

وأكرم نفسى عن أمور كثيرة   حفاظاً وأنهى شحها أن تطلعا

وإكرام النفس أمر واجب على كل أبى عفيف . كما يقول الشاعر زهير بن أبى سلمى(٧٧) على أن يتبصر فى معرفة حقيقة الناس ويفرق بين الصديق والعدو ، ويكون سنده فى كل مخططات حياته اكرام نفسه فى كل احوال إقامته أو ظعنه :

ومن يغترب يحسب عدواً صديقه   ومن لايكرم نفسه لايكرم

ومن أجلّ سمات البطولة النفسية أن يحكم الإنسان أمره ، يفكر فى عواقب الأمور قبل الإقدام عليها ، ويحفظ نفسه عن مظانّ الشر ، وما أحسن ان يتحكم المرء فى دوافعه وبخاصة وقت الغضب وأن يركن الى الحلم وإظهار حزمه لأموره فلا يندفع فى أمر يجلب له الشرور والتهلكة ، وهذا مارسمه الشاعر عبد قيس بن خفاف(٧٨) :

وإذا تشاجر فى فؤادك مرة   أمران فاعمد للأعف الأجمل
وإذا هممت بأمر شر فاتئد   وإذا هممت بأمر خير فافعل

ب - هجر التلون والنفاق :

من أحط الخصال الإنسانية أن يتلون المرء أمام الآخرين فى المواقف المتعددة وقد أدرك هذا شعراء العصر الجاهلى ، فرأوا أن من اكتال عناصر البطولة الإنسانية فى البشر أن يكون الرجل على صورة واحدة ، يراه بها الصديق وغيره ، فمن ملك أمر نفسه وسيطر

عليها لايهاب الناس ولاينافقهم أو يتلون أمامهم ليعطفوا عليه أو يكون موضع إحسانهم وتقديرهم ، فكمال المرء فى ثبات خلقه . وبطولته النفسية فى أن يكون لمرآته وجه واحد،لأن الزيف سرعان ماينكشف وتعود الصفات الأصيلة الى أصحابها . ويظهر وجهه الآخر ليعبر للقوم عن زيف الحقائق . فالخير كل الخير أن يوطن الإنسان نفسه على موقف الصدق حين تسول له أن يتلون أو يتصرف تصرفاً مغايراً لما أثر عنه من سمات أصيلة . فهذا ذو الاصبع العدوانى(٧٩) يهتف قائلا :

كل امرئ راجع يوماً لشيمته   وإن تخالق أخلاقاً الى حين

ومن صور التلون التى أدركها شعراء العصر الجاهلى أن ينعت المرء أخاه بما يكره فى غيبته ، وحين يلقاه يتخلص من هذا النعت ويأتى بالصفات الحميدة . فكره الشاعر المثقب العبدى(٨٠) أن يكون بين المجتمع البشرى مثل هذا الرجل ودعا الى التخلق بحميد الصفات الانسانية . فالتلون من صفات الحيوانات الدنيئة وما أنبل أن يقى الإنسان نفسه .

أما الشاعر **أوس بن حجر**(٨١) فيبرز لنا صورة الإخاء الصحيحة البعيدة عن التلون والنفاق معلنا ان الإخاء الصدق أمر ضرورى فى بناء صرح كيان المجتمع الإنسانى ، ولاتكتمل شمائل الناس إلا إذا عمهم صدق الأخوة وظهر كل إنسان على حقيقته أمام الآخرين :

وليس أخوك الدائم العهد بالذى   يذمك إن وَلىَّ ويرضيك مقبلا
ولكن أخوك النأء مادمت آمناً   وصاحبك الأدنى إذا الأمر أعضلا

ومن خير أبيات **عنترة العبسى** تحذيره للبشر جميعا من خداع الرؤية والتلون ، وأن يكون المرء خبيراً بمن يعاشر ، ملمّا بكل أطراف حياته حتى لايقع فى شراك الغدر والمباغتة . وتلك بطولة نفسية تدل على الفراسة وبعد النظر . فشأن من يركن الى الناس ولايدرك حقيقة أمرهم ويطمئن دائما اليهم دون تجربة ، كشأن من يأنس الى الحية الرقطاء

ويتلمسها بيده وقد بهرت العيون بلونها ونعومة ملمسها ، فإذا أظهرت حقيقتها فهى الفتك والفناء الكامن تحت أنيابها يسرى فى دم الإنسان فيقضى عليه كما يقضى المتلون على سلامة المجتمع فاحذروه :(٨٢)

إن الأفاعى وإن لانت ملامسها   عند التقلب فى أنيابها العطب

جـ . الوفاء بالوعد :

من أنبل الشمائل الإنسانية ان يكون الانسان وفياً بوعده ، باراً بما أخذ على عاتقه ولو كلفه ذلك مشقة وعناءً . فقد حضت آيات الكتاب المبين على الوفاء بالعهد فى مواقف عديدة منها قوله تعالى« **بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين** »(٨٣) « **والموفون بعهدهم إذا عاهدوا** »(٨٤) فهم أولئك الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه . فمن عجيب الأمور أن نجد بين شعراء الجاهلية من يخطط لسلامة المجتمع الإنسانى بالوفاء بالعهود ، وينمّى فى أبناء ذلك العصر تلك الفضيلة لأنها انتصار الإنسان على نفسه بعد صراع مرير يتجاذب طرفيه عاملان هما الخير فى الانجاز والشر فى الخلف والغدر ، فمن استطاع أن يغلب الجانب الأول فهو البطل الحرىّ بالإكبار .

وكان العرب فى جاهليتهم لايقدرون شيئا كما يقدرون الوفاء ، فإذا وعد أحدهم وعداً أوفى به ، وأوفت معه قبيلته(٨٥) حتى ولو كلفه ذلك أعز مايملك من متاع الدنيا .

وقد تسابق الشعراء فى هذا الميدان ، فجاء **الأعشى**(٨٦) **يحض على الوفاء بالعهد وأداء الأمانة حتى ولو كلفه ذلك حياته ، فيكفى أن يخلد ذكره بين الناس ليقال وعد فأوفى ، فهتف بنصائحه الغالية قائلا :**

ولاتعدن الناس مالست منجزاً   ولاتشتمن جاراً لطيفاً مصافيا
وإن امرؤ أسدى اليك أمانة   فأوف بها إن مت سميت وافيا

ويؤكد هذا المعنى فى مناسبة ثانية عن نفسه بقوله : :

وإنى إذا ماقلت قولا فعلته   ولست بمخلاً ، لقولى مبدل

أماعامر **بن الطفيل**(٨٨) فيعطى لنا صورة الإنسان قوى الإرادة البطل الحقيقى الذى إذا أصدر وعيداً نحو غيره ربما يتناساه .·ولايقدم عليه لأن فيه الضرر والهلاك له أو للموعود . أما إذا وعد فلابد من ان يكون حريصاً على الوفاء بوعده لما فيه من خير وعلو مكانة بين الناس جميعا فيقول :

وإنى إن أوعدته أو وعدته   لأخلف إيعادى وأنجز موعدى

ويأتى دور **زهير بن أبى سلمى** داعية السلام ليحض الناس على الوفاء بالعهد ويبصرهم بأن مكنون صدور القوم من خلق دفينة لابد ظاهرة للعيان فى يوم من الأيام وان طال عليها الزمن او خفيت عن الناس أحيانا . فكمال المره أن يكون واضحاً . ظاهره كباطنه . وبطولته أن يفى بما وعد دون حاجة الى كذب أو اختلاق الأعذار . وأجدر بأن يكون سر المره وديعة عند من طابت سريرته وجملت خصاله وحمدت بين الناس أفعاله . فقال مرشداً للناس :(٨٩) :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة   وإن خالها تخفى على الناس تعلم
ومن يوف لايذمم ومن يفض قلبه   الى مطمئن البر لايتجمجم

د ـ الحرص وبعد النظر :ـ

لم يكن بغريب أن نجد بين شعر الجاهلية مايدعو الإنسان الى الحرص فى أمور حياته وبعد النظر فيما ينفذه أو يقدم عليه . فالبطل فى عُرف الناس هو من يقدر لرجله قبل الخطو موضعها . ويحسب حساب الزمن فى كل ظروف حياة الإنسان أهو معه أم عليه . ويدرك بثاقب بصره كيف يتصرف فى الأمور وفق ناموس الحياة . ولايأتى من نفسه بدعة وإنما يكون ذا تجارب وحنكة وخبرة ربما استقاها من غيره من ذوى العقول المفكرة والخبرات القديمة ..

وفى هذا المجال ينبرى **عبيد بن الأبرص**(٩٠) **ليعطى لنا نمطاً من السلوك البشرى**

السليم الذى ينبغى أن يتجمل به الإنسان ليصير بطلاً ذا شمائل محمودة ، وتلك خصلة الطاعة وسماع نصح الغير ممن صقلتهم الحياة بتجاربها العديدة والخير كل الخير ألا يشذ الإنسان عن الجماعة فى مجتمع تباعدت أطرافه وحاقت به الاخطار من كل جانب ، فما أحوجه الى الحرص والتآزر والتناصح :

إذا كنت لم تعبأ برأى ولم تطع   لنصح ولاتصغى الى قول مرشد
فلا تتقى ذم العشيرة كلها   وتدفع عنها باللسان وباليد

ومن بُعد بصيرة الإنسان أن يجرب الناس قبل أن يحكم عليهم . فالبطولة النفسية فى اتخاذ قرار بحكم على الآخرين ليس بالأمر الهين ، وإنما يحتاج الى تجريب وإخضاع لأسس مسلكية فى حياة الفرد والجماعة ، وتبيان مدى التلاؤم والتلاحم بين جميع الأطراف ، والخروج بأحسن النتائج وأنفعها للفرد ..
وهذا مايشير اليه الشاعر عبيد بن الأبرص بنصحه للناس :(٩١)

ولاتظهرن حب امرئ قبل خبره   وبعد بلاء المرء فاذمم أو احمد
ولاتتبعن رأى من لم تقصه   ولكن برأى المرء ذى اللب فاقتد

والحرص وبعد النظر يتمثلان فى قول تأبط شراً(٩٢) حين قال إن التأكد فى اتخاذ القرار لايوصل الإنسان الى الندم والتحسر ، طالما كان بعيد النظر مقدراً للعواقب ، ويضع الشىء فى موضعه السليم ، فهو الأمثل خلقاً والأجدر بالاحترام ، ولاغرابة أن يصدر ذلك النصح من شاعر - وإن كان من صعاليك الجاهلية - أسس البطولة النفسية فى شعره مألوفة ، وخصاله أمام جميع الناس معروفة ، فالعاقل من يقدر العواقب ويدرك منتهاها :

ولا أقول إذا ماخلة صرمت   ياويح نفسى من شوق وإشفاق

ومن بطولة بعد النظر والحرص ألا يأتمن الإنسان خائنا ، سواء أكانت تلك الأمانة ماديه أم معنوية كالأسرار والود ، ومن العجيب ان يظهر هذا السلوك فى مجتمع جاهلى

غلبت فيه علامات الخطف والنهب والسلب وأكل الأمانات واستطعام حقوق الناس . ـ فإن الخئون لايصدقك وصحبته مهلكة لك وله . والنسج على منواله كنسج العنكبوت بل هو أوهن . وحياته شر مستطير . وصاحبه مغرور كفور . فما أجمل التحذير منه على لسان عبيد بن الأبرص(٩٣) حتى يكمل لوحات الشمائل الإنسانية فى الشعر الجاهلى :

إذا أنت حمّلت الخئون أمانة فإنك قد أسندتها شر مسند
وجدت خئون القوم كالعرِّ يُتقى وماخلت غم الجار الا بمعهدى

وبعد : فيضيق المجال عن ذكر كل مافى الخيال من صور البطولة النفسية والشمائل الإنسانية وتحليها فى الشعر الجاهلى ويكفى هذا القدر أن يكون دليلا على صفاء نفوس بعض الشعراء وإحقاقاً لحقهم فى الحياة الشريفة فى تلك الفترة الجاهلية .

المصادر

١ ـ **القرآن الكريم**

٢ ـ **الأصمعيات** تحقيق الاستاذين احمد شاكر وعبدالسلام هارون ط٣ دار المعارف مصر ١٩٦٧ م .

٣ ـ **أصول علم النفس** د . احمد عزت راجح ط٩ المكتب المصرى الحديث بالاسكندرية ١٩٧٣ م .

٤ ـ **جواهر الأدب** احمد الهاشمى دار الفكر القاهرة د .ت

٥ ـ **ديوان الحماسة** لأبى تمام طبعة بولاق القاهرة ١٢٩٦هـ

٦ ـ **حماسة البحترى** المطبعة الرحمانية القاهرة ١٩٢٩

٧ ـ **ديوان الأعشى** فوزى عطوى بيروت ١٩٦٨

٨ ـ ديوان أوس بن حجر تحقيق د . محمد يوسف نجم بيروت ١٣٨٠هـ

٩ ـ **ديوان حاتم الطائى** كرم البستانى دار صادر بيروت ١٩٦٣

١٠ ـ **ديوان زهير بن أبى سلمى** تحقيق الاستاذ مصطفى السقا القاهرة ١٩٢٩

١١ ـ **ديوان الشنفرى** تحقيق عبدالعزيز الميمنى القاهرة ١٩٤٧

١٢ ـ **ديوان طرفة بن العبد** شرح الهمشرى القاهرة ١٩٠٠

١٣ ـ **ديوان عامر بن الطفيل** دار صادر بيروت ١٩٦٣

١٤ ـ **ديوان عبيد بن الأبرص** كرم البستانى دار صادر بيروت ١٩٦٤

١٥ ـ **ديوان عروة بن الورد** دار صادر بيروت ١٩٥٣

١٦ ـ **ديوان عنترة العبسى** تحقيق محمد سعيد مولوى ١٩٧٠

١٧ ـ **ديوان قيس بن الخطيم** تحقيق د . ناصر الأسدى دارالعروبة القاهرة ١٩٦٣

١٨ ـ **ديوان النابغة** دار صادر بيروت ١٩٦٠

١٩ ـ **ديوان الهذليين** دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٤٨

٢٠ ـ **العصر الجاهلي** د . شوقي ضيف دار المعارف القاهرة ١٩٦١

٢١ ـ **لامية العرب** دار مكتب الحياة بيروت ١٩٧٤

٢٢ ـ **مختار الشعر الجاهلي** تحقيق الاستاذ مصطفى السقا ط ٤ القاهرة ١٩٧١

٢٣ ـ **المفضليات** تحقيق الاستاذين احمد شاكر وعبدالسلام هارون ط٥ دار المعارف القاهرة ١٩٦٤

٢٤ ـ **موسوعة الشعر العربي** العصر الجاهلي بيروت ١٩٧٤

● الهوامش ●

(١) أصول علم النفس ـ د . احمد عزت راجح ص٩٣
(٢) المصدر السابق ٩٦
(٣) المصدر السابق ٩٩
(٤) مختار الشعر الجاهلي ٢/٣٧
(٥) حماسة أبي تمام ٢/٤٩٢
(٦) سورة الشمس أية رقم ٩
(٧) ديوان عبيد ٨٦
(٨) لامية العرب ٥٧
(٩) لامية العرب ٤٣
(١٠) ديوان الهذليين ٢/١٢٧
(١١) المزلج : البخيل
(١٢) المفضليات ١٦٠
(١٣) يؤوس : نفور
(١٤) موسوعة الشعر العربي ـ العصر الجاهلي ـ ٢/٤٤٦
(١٥) ديوان عنترة ٢٤٩
(١٦) ديوان عنترة ٨٧
(١٧) مختار الشعر الجاهلي ٢/٢٩٠
(١٨) ديوان عنترة ٢٠٩
(١٩) لامية العرب ٨٣

(٢٠) مختار الشعر الجاهلى ٢/٣٠٢
(٢١) المفضليات ٤٢٢
(٢٢) ديوان عنترة ١٨٥
(٢٣) مختار الشعر الجاهلى ٢/٣٠١
(٢٤) لامية العرب ٨١
(٢٥) سورة النساء أية رقم ٣٦
(٢٦) العصر الجاهلى ٦٩ الدكتور شوقى ضيف
(٢٧) المفضليات ٤١٣
(٢٧) ديوان طرفة ١٣٥
(٢٩) مختار الشعر الجاهلى ٢/٢٨٦
(٣٠) المفضليات ٤١٠
(٣١) موسوعة الشعر العربى ـ العصر الجاهلى ـ ٤٨١
(٣٢) الأصمعيات ٦٣
(٣٣) أجمل : أستر
(٣٤) موسوعة الشعر العربى ـ العصر الجاهلى ـ ٢/١٨٨
(٣٥) موسوعة الشعر العربى ـ العصر الجاهلى ٥٨٩
(٣٦) مختار الشعر الجاهلى ٢/١٧٢
(٢٧) الشافعون : الدافعون
(٣٨) مختار الشعر الجاهلى ٢/١٧٥
(٣٩) موسوعة الشعر العربى ـ العصر الجاهلى ـ ١٧٨
(٤٠) الحميته : لون من الطعام يرب باللبن والسمن
(٤١) موسوعة الشعر العربى ـ العصر الجاهلى ـ ٥٠٩
(٤٢) ديوان عنترة ٣٠٨
(٤٣) ديوان عبيد بن الأبرص ١٣٢
(٤٤) مختار الشعر الجاهلى ٢/٥٧٧
(٤٥) المقرفون : المتهمون
(٤٦) ديوان حاتم ٣١
(٤٧) ديوان حاتم ٣٥
(٤٨) موسوعة الشعر العربى ـ العصر الجاهلى ـ ٤٩٣
(٤٩) مختار الشعر الجاهلى ٢/٣٦٦
(٥٠) مختار الشعر الجاهلى ٢/٣٧٣
(٥١) ديوان عروة بن الورد ٣١
(٥٢) مختار الشعر الجاهلى ٢/١٩٥
(٥٣) موسوعة الشعر العربى ـ العصر الجاهلى ٥٠٢
(٥٤) سورة البقرة أية رقم ٨٣
(٥٥) سورة البقرة اية رقم ٢١٥
(٥٦): سورة النساء أية رقم ١٣٥

(٥٧) سورة الأنعام أية رقم ١٥١
(٥٨) سورة الأسراء أية رقم ٢٣
(٥٩) شرح ديوان زهير للأعلم الشنتمر ٩٢ ط ١٣٠٦هـ
(٦٠) سورة الشورى أية رقم ٢٣
(٦١) سورة البقرة أية رقم ١٧٧
(٦٢) مختار الشعر الجاهلى ٢/٣٠٢
(٦٣) ديوان عبيد بن الأبرص ٦٧
(٦٤) ديوان عبيد بن الأبرص ٨٦
(٦٥) موسوعة الشعر العربى ـ العصر الجاهلى ـ ٥٠١
(٦٦) المفضليات ٤٥
(٦٧) مختار الشعر الجاهلى ٣٢٠
(٦٨) ديوان المثقب العبدى ٢٢٧
(٦٩) سورة البقرة أية رقم ٨٣
(٧٠) المفضليات ٢٦١
(٧١) الأصمعيات ١٧٥
(٧٢) حماسة البحترى ٢٥٨
(٧٣) موسوعة الشعر العربى ـ العصر الجاهلى ـ ١٠٥
(٧٤) مختار الشعر الجاهلى ١٩٢
(٧٥) موسوعة الشعر العربى ـ العصر الجاهلى ٥٠١
(٧٦) الأصمعيات ٦٣
(٧٧) مختار الشعر الجاهلى ٢٣٤
(٧٨) الأصمعيات ٢٣٠
(٧٩) المفضليات ٣٢٣
(٨٠) جواهر الادب ٢/٣٦٤
(٨١) ديوان أوس بن حجر ١٦٣ تحقيق محمد يوسف نجم
(٨٢) المفضليات ٧٥١
(٨٣) سورة آل عمران أية رقم ٧٦
(٨٤) سورة البقرة أية رقم ١٧٧
(٨٥) العصر الجاهلى ٦٩
(٨٦) مختار الشعر الجاهلى ٢/٣٠٢
(٨٧) مختار الشعر الجاهلى ٢/٣١٤
(٨٨) ديوان عامر بن الطفيل ٥٨
(٨٩) مختار الشعر الجاهلى ٢٣٤
(٩٠) ديوان عبيد بن الابرص ٦٦
(٩١) ديوان عبيد بن الأبرص ٦٧
(٩٢) المفضليات ٢٨
(٩٣) ديوان عبيد بن الابرص ٦٧